صور من رثاء النبي «صلى الله عليه وسلم» عند شاعرات بيت النبوة

د. عبد العاطي سيد حرب
مدرس الأدب والنقد

من المعروف أن البكاء على فراق الأحبة ورثاءهم من الموضوعات البارزة في شعرنا العربي ، فقد بكى الشعراء من رحلوا عن هذه الدنيا ، وانتقلوا الى الدار الآخرة ، وقد عرف الحزن ورثاء الميت منذ وجد الإنسان ، وان اختلفت صوره بوسائل التعبير عن هذا الرثاء ، وعلى كل فهو غرض شعري عميق في القدم ، عرفه الإنسان منذ أن عرف المصير المحتوم المحزن ، مصير الموت والفراق ، الذي لابد أن يصير اليه كل حي ، فيصبح أثرا بعد عين ، وذكرى بعد حقيقة مشاهدة وملموسة .

والرثاء هو بكاء الميت ، والتفجع عليه ، واظهار اللوعة لفراقه ، والحزن لموته ، وتعداد خلاله الكريمة ، والاشادة بمناقبه وشمائله ، وربما يفوق الرثاء كل فنون الشعر اذا كان صادرا عن قلب موجع ، وعاطفة حارة وفؤاد مكلوم ، ومن ثم فان للعاطفة دورا هاما في جودة شعر الرثاء وقوة التأثير فيه(١) .

---

(١) الشعر في عصر المأمون د. علي محمد طلب ص ١٨٣ . ط الأمانة بالقاهرة سنة ١٩٨٥م .

وكما يقول ابن رشيق فى عمدته « وسبيل الرثاء أن يكون ظاهره التفجع بين الحسرة ، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام »(٢) .

وقد عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلى ، اذ كان النساء والرجال جميعا يندبون الموتى ، ويقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم ، وربما خلطوا ذلك بالتفكير فى مأساة الحياة من بعدهم ، وبيان عجز الانسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك المصير المحتوم الذى لا مفر منه .

ومن المسلم به أن لكل أمة مراثيها الخاصة بها ، والأمة العربية من الأمم التى تحتفظ بتراث ضخم من المراثى ، وهى تأخذ عندها ألوانا ثلاثة هى : الندب ، والتأبين ، والعزاء .

أما الندب : فهو بكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ، ويتفجع اذ يشعر بضربة قوية تصوب الى قلبه ، فقد أصابه القدر فى ابنه ، أو فى أبيه أو أخيه ، وهو يترنح للاصابة ترنح الذبيح ، فيبكى بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار ، يبث فيها لوعة قلبه وحرقته ، وقد ينظر فيرى الموت مطلا نصب عينيه ، وهو ينحدر راغما الى حفرته ، لا ناصر له ولا معين ، ويصيح ولا ينفعه صياحه ، ففم الهاوية يقترب منه ، ويوشك أن يلتقمه ، فيبكى ويلحن بكاءه على فيثارة شعره ، تلحينا مشجيا ، كله آلام وحسرات ، والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم(٣) ..

---

(٢) العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص١٤٧ . تحقيق محيى الدين عبدالحميد

(٣) فن الرثاء د. شوقى ضيف ص ٥ ط دار المعارف .

أما التأبين ، فليس نواحا ولا نشيجا على هـذا النحـو ، بل هو أدنى الى الثناء منه الى الحزن الخالص ، اذ يسقط نجم لامع ويأفـل من سماء المجتمع ، فيشـيد به الشـعراء منوهين بمنزلته ، السياسية او العلمية ... وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه ، ومن هنا كان التأبين ضربا من التعاطف والتعاون الاجتماعى ، فالشـاعر لا يعبر فيه عن حزنه هو ، وانما يعبر عن حزن الجماعة وما فقـدته فى هذا الفرد المهم من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلح فى هذا التسجيل ، وكأنه يريد أن يحفرها فى ذاكرة التاريـخ ، حتى لا تنسى على مـر الزمـن .

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، اذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التى هو بصددها الى التفكير فى حقيقـة الموت والحياة ... وتلك هى ألوان الرثاء فى شعرنا العـربى فى صـورة موجـزة .

ولمـا كان الرثاء من نتاج العاطفة الشديدة والانفعال العميق ، فقد حفل به ديوان شعرنا العربى ، وانطلق فيه خيال الشعراء مضخما مهولا ، وبرزت فيه الحقائق التاريخية متسربلة بلباس العاطفة الجياشة، فاشتدت فيه الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف ، وتدفقت هـدارة تنفس عن انفجارات النفوس ، وحزن القلوب لكونها ترافق ضـياع العزيز ، وفقد الحبيب .

ولم يقتصر فن الرثاء على الرجال، بل أسهمت فيه النساء ،وربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه والشهرة فيه ، اذ كانت المرأة تقوم على ندب الميت أياما ، وقد يمتد قيامها عليه سـنوات « وكن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود أحيانا ، وقـد

يقمن بذلك فى مجالس القبلية ، وعلى القبور فى المواسم العظام كموسم عكاظ ...»(٤) .

ومن هنا كان من الطبيعى أن يتفوق النساء على الرجال فى ندب الموتى والنواح عليهم لأن المرأة أدق حسا وشعورا ، وأيضا فان حياة الرجال فى العصر الجاهلى كانت تقوم على المفاخرة بالشجاعة والجلد والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كفعل النساء بل لقد ذهبوا يظهرون التجلد والصبر على من يموت منهم(٥) .

أما المرأة فقد كان وحى الرثاء عندها ما عرفت به من عاطفة صادقة، وضعف ظاهر ، فانها وان كانت قد شاركت فى جميع أبواب الشعر الا أنها قد حلقت فى فن الرثاء ، وبرزت فيه ، لأنه هو المجال الفسيح الذى تنطلق فيه عواطفها لأنه « نوع من النواح والبكاء وسلاح المرأة دائما دموعها ، وهى أول شىء تلجأ اليه اذا حز بها امر او ألم بها مكروه(٦) .

وقد ذكر الدكتور الحوفى بعضا من السمات العامة التى يتسم بها شعرهن خاصة الرثاء فقال : « البراعة فى قليل من تلك الموضوعات وفى مقدمتها الرثاء ، لأنه مجال فسيح للنواح والبكاء تنطلق فيه عواطفهن ، وان المرأة لتلجأ الى دموعها أول ما تلجأ ، اذا ما قسا عليها الدهر ، وانها لتوالى بكاءها وتستطيله ، وتلتذ بحزنها وتستديمه وفاء وحسرة او ضعفا ورقة ، فان كانت شاعرة نفست عن نفسها بابيات تسكب فيها لوعتها وحرقتها(٧) .

---

(٤) راجع فن الرثاء د. شوقى ضيف ط دار المعارف ص ٨ .

(٥) أدب النساء فى العصر الجاهلى د. محمد بدر معبدى ص١١ .

(٦) فن الرثاء مرجع سابق ص ٨ .

(٧،٨) أضواء على الادب الحديث د. أحمد الحوفى ص ٢٦٢،٢٣٦ ط دار المعارف .

وبعد أن يذكر أسماء لشاعرات من العصر الجاهلى والحديث يقول : « ولدنهن فى مراثيهن حريصات على تصوير ما أصابهن من ضعف وذلة بعد فقد من فقدن ، وهذا صدق شعورى وصدق واقعى ، لأنهن يعلمن أن الرجال حماتهن وملاذهن ... وليس لهذه الظاهرة أثارة فى رثاء الرجال ، وان عظم حزنهم واشتد ألمهم »(٨) .

ومن ثم كان الرثاء عند المرأة العربية تقليدا مرعيا وعرفا لا تنساه ، ولا تهمله ، ويدلنا على ذلك كثرة الشاعرات الراثيات عن باقى أغراض الشعر الأخرى ، فهى مستجيبة لعواطفها وانفعالها بالمصاب دن جهة ، ومؤدية لواجبها فى الميدان الأدبى من جهة اخرى ، أعنى أنها كانت تقوم به كما كان يقوم شاعر القبيلة بواجبه فى نشر مفاخر القبيلة من حيث الشجاعة والبطولة والقدرة على سفك الدماء واطاحة الهامات ، ووصف المعارك الحربية التى تخوضها قبيلته ولما لحق الأعداء من ذل لهم وتمثيل بجثثهم الى غير ذلك من تصوير للمواقف المرعبة ، فالشاعر لسان القبيلة السياسى والحربى يتغنى بمجدها ويشيد بشجاعة رجالها وبأس أبطالها وقوة فرسانها ، والشاعرة الراثية لسان القبيلة الباكى الذى يخلد هؤلاء الأبطال ، فهم وان فقدوا وذهبوا لا تزال فضائلهم باقية ، وأيضا تذكر القبيلة هؤلاء القتلى وتحثهم على الأخذ بثأرهم وتشعل حماسهم بما تقوله من رثاء يقطع نياط القلوب .

ومن خلال هذا نستطيع القول بأن لكل من الشاعر الذى يفخر بقبيلته وينشر فضائلها ، والشاعرة الراثية وظيفة ومهمة قد تعارف عليها ذلك المجتمع القبلى فى ذلك الوقت ، ولا يستطيع أن يرفض واحدة منهما ، فكل له دوره البارز ، والشاعر الفارس الذى يمثل القوة كان عليه أن يهتم فى شعره بالفخر والهجاء والمدح لعشيرته ، والمرأة التى كانت تعتقد الضعف فى نفسها ولا حياة لها بدون الرجل القوى

كان عليها أن تهتم فى شعرها بالرثاء وندب الموتى والبكاء عليهم بدمع غزير حتى تهب القبيلة لنصرتها وتأخذ بثأرها .

ومن هنا كانت المرأة بطبيعتها تجيد فن الرثاء ، وتستثار مشاعرها المرهفة أمام صدمة الموت فهن أشجى من الرجال قلوبا عند الفجيعة ، وأشد منهم حزنا وأعظم لوعة ، لأنهن أضعف احتمالا ، وقلوبهن أسرع انخـــــلاعا(٩) .

لهذا لمـا أردت أن أكتب عن رثاء النبى — ﷺ — قصرت بحثى على شعر الصادر عن النساء دون الرجـــال ، لأننى وجـــدت كثيرا من المصادر التاريخية ، وكتب السيرة النبـــوية كتاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وسيرة ابن هشـــام ، وغـــير هذه المصادر لم تهتم بشعر النساء فى هـــذا الموضوع ، وهـــذا شىء غريب من هؤلاء الأعلام الذين تحدثوا عن تاريخ الإسلام وســـيرة النبى — ﷺ — .

والأغرب من هذا أنه وقع فى يدى كتاب لأستاذنا/محمد عبدالغنى حسن ، وفيه بحث تحت عنوان «مراثى الشعراء للرسول عليه السلام» وفيه يتحدث الكاتب عن اهمال المؤرخين لهذا الموضوع وعدم جمعـــه فى كتاب خاص أو فى فصل مستقل ، ويذكر أن المؤرخ الوحيد الذى اهتم به هو ابن هشام ويذكر قصائد حسان التى سجلها ابن هشام فى سيرته ، ويغفل الكاتب مصدراً مهما من المصادر التى جمعت الشـــعر الذى رثى به الرسول — ﷺ — خاصة النساء وهو طبقات ابن سعد ولا أدرى لمـــاذا أغفل الكاتب هـــذا المصـــدر المهم ؟ ولو قصر الكاتب

---

(٩) المرأة فى الشعر الجاهلى ص٦١٧ د. الحوفى ط نهضة مصر .

بحثه على شعر الرجال لكان له بعض العذر ولكنه تكلم عن مراثى النساء ، فقد عدد لنا بعض المراجع التى فيها بعض الأبيات ولا ترقى الى طبقات ابن سعد فى جمعها لهذا الشعر لهذا كان بحثى ردا على هذا الكاتب ، والأغرب أيضا والمدهش فى هذا الأمر أن الكاتب يطرح سؤالا فى نهاية بحثه وهو « فمن أين هذه الهند المطلبية » التى جاء بها الباهلى الأشبيلى ، ومن أين جاءت هذه الأبيات فى رثاء الرسول التى رواها صاحب « الزخائر والأعلاق » ونسبها الى المزعومة هند بنت عبد المطلب ؟ أحسن الله الى من يدلنا على وجه الصواب فى هذه الأبيات وفيما نقلناه من مراث فى رثاء نبى هذه الأمة العربية ... »(١٠) .

وقبل طرح هذا السؤال يذكر الكاتب أبيات هند هذه والتى أخطأ فى نسبها نقلا عن صاحب كتاب الزخائر والأعلاق ، ولو رجع الكاتب الى كتاب الاصابة أو أسد الغابة فى معرفة الصحابة أو أعلام النساء أو طبقات ابن سعد لعرف أن هندا هذه ليست كما زعم الأشبيلى ، ولم تكن عمة للنبى — ﷺ — ولكن الصواب فى الأمر أنها « هند بنت أثاثة ابن عباد بن المطلب بن عبد مناف آخت مسطح بن أثاثة » فقد اختلط على الاشبيلى وعدها من بنات عبد المطلب ، وسار على ذلك أستاذنا محمد عبد الغنى حسن .

وعن صحة نسب هند بنت أثاثة هذه يقول صاحب كتاب أسد الغابة « هند بنت أثاثة ابن عباد بن المطلب بن عبد مناف القرشية

---

(١٠) دراسات فى الادب العربى والتاريخ بقلم محمد عبد الغنى حسن ص ١٧١ ط الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة .

المطلبية ، أخت مسطح بن أثاثة ، ذكرها العسكرى فى ترجمة أخيها مسطح وذكرها ابن اسحاق .. »(١١) .

ومن هنا كتبت هذا البحث لأرد على هذا السؤال وأبين ان الأبيات التى أشار اليها الكاتب لهند صحيحة أمه نسبها الدى ذكره هو خطأ والصواب ما ذكرته ، وقد ذكرت الأبيات فى موضعها من هذا البحث ، بل أضفت الى الشعر الذى ذكره أستاذنا محمد عبد المعنى حسن كثيرا من شعر النساء اللاتى أغفلهن ، ولو رجع الكاتب الى كتاب طبقات ابن سعد لما وقع فى هذا الخطأ ، وهكذا يجب على الباحث أن يكمل ما بدأه غيره ، او يصحح فكرة أو خطأ وقع فيه من سبقه ، فكان هذا البحث تكملة لما كتبه أستاذنا محمد عبد المعنى حسن وتصحيح هذا الخطأ فى نسب هند بنت أثاثة .

وفى هذا البحث أردت أن أجمع قصائد النساء فى رثاء النبى — ﷺ — ومما شجعنى على الكتابة فى هذا الموضوع أنه لفت نظرى وجود كثير من الشعر فى رثائه — ﷺ — قالته النساء ولم يتعرض له أحد بالبحث حتى الموضوع المشار اليه لم يذكر الا القليل ، فالح على خاطرى سؤال وهو لماذا كثر شعر النساء فى المصادر وأشار اليه المؤرخون عن شعر الرجال فى هذا الصدد ؟! .

فأخذت أبحث عن اجابة له ، فكان لزاما على أن أذكر أثر فقد الرسول — ﷺ — على نفوس المسلمين ، حتى نخرج باجابة شافية ، لأن الشعر مأخوذ من الشعور ..

---

(١١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير تحقيق محمد ابراهيم البنا ومحمد عاشور ص ٢٨٨ ج ٧ ط الشعب .

فقد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأثره على نفوس المسلمين :

مما لا شك فيه أنه لا يوجد أحد من صحابة النبى — ﷺ — عندما علم بموته ، الا وقد حزن حزنا عميقا ، وكادت روحه أن تزهق وعقله أن يذهب ويجن ، لأنه فقد أحب الخلق وهو رسول الله — ﷺ — فهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — المعروف بالشدة والصرامه والتماسك ، عندما علم بهذا الخبر لشدة حبه لرسول الله — ﷺ — لم يصدق الخبر ، وقال : انه لم يمت ولكنه ذهب الى ربه وسيرجع ، كما ذهب موسى بن عمران من قبل ، ولندع كتب السيرة توضح شيئا من هذا .

يقول صاحب كتاب محمد رسول الله والذين معه « وجاء عمر وعثمان وعلى ، وصك العويل أسماعهم ، فأما عمر فخبل ، وأما عثمان فأخرس ، وأما على فأقعد ولم تستطع قدماه أن تحملاه فانهار ، وصار عمر فى ناحية المسجد يقول : « ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله — ﷺ — مات ، ولكنه ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام ، ثم رجع الى قومه بعد أربعين ليلة ، بعد أن قيل انه مات ، والله ليرجعن ... فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم » .

وما زال عمر يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه ، ودهش الناس وطاشت عقولهم ، فما كانوا قادرين على أن يصدقوا أن خليل الله وحبيبه ونجيه وصفيه ، ورسوله ونبيه يموت ، أحقا قد انقطع عن الأرض وحى السماء ؟!! .. »(١٢) .

---

(١٢) محمد رسول الله والذين معه جـ ٢٠ ص٤٤ للاستاذ عبد الحميد جودة السحار ط نهضة مصر .

راجع : المرجع السابق ص ٤٦ . وراجع تاريخ الطبرى جـ ٣ ص١٩٩ ، ٢٠٧ ط دار المعارف .

ويأتى أبو بكر بعد سماع الخبر ، ويرى ذهول الناس ، وموقف عمر ، فيردهم الى صوابهم بعد أن ربط الله على قلبه ، وأنزل السكينة عليه فقال : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حى لا يموت » ، ثم تلا قوله تعالى «وما محمد: الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا .. »(١٣) .

واذا قسنا هذه الفاجعة بالعقل البشرى المجرد ، وجدناها أكبر من أن يتحملها بشر الا من ربط الله على قلبه مثل أبى بكر ، فقد بكى الناس على رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقالوا والله لوددنا أنا متنا ، انا نخشى أن نفتن بعده ، ونزل بقلوب الناس حزن ثقيل وخيم الأسى على مدينة الرسول ـ ﷺ ـ .

وبعد أن دخل على ومرافقوه ليغسلوا رسول الله ـ ﷺ ـ طفق على يقول « بابى أنت وامى يا رسول الله ، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسليا عمن سواك وعممت حتى صار الناس فيك سواء ، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لانفدنا عليك ماء الشئون ، ولكان الداء مماطلا ، والكمد مخالفا ، وقلا لك ، ولكن مالا يمنك رده ولا يستطاع دفعه ، بأبى أنت وامى اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .. »(١٤) .

اذن فقد حزن كل المسلمين على فقد رسول الله ﷺ ـ وعلى انقطاع الوحى ، وأصبحوا فى ذهول من شدة الصدمة وفداحة الكارثة.

---

(١٣) راجع : السيرة النبوية لابى عبد الملك بن هشام ، راجع أصولها نخبة من العلماء جـ ٤ ص ١٥١٣ ، ط دار الفكر ـ القاهرة .

(١٤) راجع محمد رسول الله والذين معه جـ ٢٠ ص ٥٩ .

فهل لم يكن فى المسلمين شعراء غير حسان بن ثابت ليذكر شعره فى بعض المراجع التى ذكرت رثاء النبى — ﷺ — كما فعل ابن كثير وغيره ، أو لم يوجد غير هؤلاء القلة من الشعراء الذين ذكرهم ابن سعد فى طبقاته ، أمثال أبى بكر ، وعبد الله بن أنيس وحسان وغيرهم ، وهل لم يستطع هؤلاء الشعراء أن يرثوا رسول الله — ﷺ — بأكثر من هذه الأبيات ؟

والحقيقة التى أراها أن الفاجعة عندما تكون ثقيلة على القلب وشديده على النفس ، ولا تستطيع أن تتحملها ، يشل التفكير ويعقد اللسان ويصيح الانسان فى حاله دهول « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » هذه واحدة ، الثانية : أن الانفعال القوى والعواطف الحارة فى مثل الغضب والحزن والفرح ، لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها ، حتى يصبح صاحبها أشبه بالمتبلد ، وكل شىء يزيد عن حده ينقلب الى ضده ، وهذا ما أشار اليه د. محمد مندور عندما قال : « ... أن كافة المشاعر والانفعالات لا تخلق شعرا ساعة احتدامها ، فالأنفعال القوى يعقد اللسان ويشل التفكير ، ويشغلنا عما عداه ، فالشاعر لا يقول الشعر الا بعد أن يصحو من الشراب ، ويهدأ من التعب والغضب ، اذ تصفو عندئذ قريحته ويستطيع الخلق وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور الكامنة ، واذا فهو لا يقول الا عن روية »(١٥) .

ومن ثم قل شعر الشعراء فى رثائه — ﷺ — ولم تنقل لنا كتب السيرة الا بعض الأبيات والقصائد القليلة التى رويت لبعض الشعراء لأن الفاجعة أعظم من أن يتناولها الشعراء وتصورها الكلمات.

---

(١٥) النقد المنهجى عند العرب د. محمد مندور ص ٣٨ .

ونأتى الى ما قالته بعض النساء فى رثاء الرسول — ﷺ — وقد ذكرنا من قبل أن الشاعر لا يقول الشعر ساعة احتدام المصيبة ، لأن الانفعال القوى يعقد لسانه أما النساء فانهن يفثأن(١٦) حزنهن بالدموع الغزار الحرار ، وبالآهات والأنات والعويل ، وبالصمت الحزين والاستغراق ، والذكرى الموجعة ، فاذا ما عمدن الى القريض متحن من عاطفة قد تنفست ، وأوين الى لغة كان البكاء والنشيج والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيرا(١٧) .

وقد يبكى الرجل ، ولكنه بكاء المتماسك ، وقد يتحدث عن بكائه ولكن فى ارجاز ، أما المرأة فقد كان رثاؤها وثيق الصلة بنفسها وميولها ودقة شعورها ، وضعف احتمالها وسرعة انفعالها ، فهى حريصة على تصوير ما أصابها من ضعف وذلة بعد أن فقدت من فقدت .

وهذا ما ترجمت عنه الشاعرة المسلمة عندما رثت رسول الله — ﷺ — تقول مثلا آروى بنت عبد المطلب — رضى الله عنها — ترثى رسول الله — ﷺ — :

ألا يا عين ويحك أسعدينى ... بدمعك ما بقيت وطاوعينى
ألا يا عين ويحك واستهلى ... على نور البلاد وأسعدينى
فان عذلتك عاذلة فقولى ... علام وفيم ويحك تعذلينى
على نور البلاد معا جميعا ... رسول الله أحمد فاتركينى
فلا تقصرى بالعذل عنى ... فلومى ما بدا لك أم دعينى
لأمر هدنى وأذل ركنى ... وشيب بعد جدتها قرونى(١٨)

---

(١٦) فثأ — ما أفثأ يذكره، ما فتىء وما فتأ أى مازال ومابرح والمعنى ما يزلن « مختار » .

(١٧) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٦١٨ د. الحوفى .

(١٨) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٣ القسم الثانى .

فهذه الأبيات التى قالتها الشاعرة قد رسمت وصورت أكبر حدث هز كيان الدولة الإسلامية وهو موت الرسول — ﷺ — فمنذ هذه اللحظة أيقن المسلمون أن الوحى قد انقطع ، وبدأت الحيرة تدب فى النفوس ، وبدأت الشاعرة تبكى الرسول — ﷺ — بأصدق الأشعار وأخلدها ، لأنها وجدت فيها العزاء والسلوان عما أصابها ، ولم تهدف من وراء ذلك جاها أو مالا ، وكل ما يعنيها العزاء والندب لخير البرية — ﷺ — وقد وجدت فيه صدى لعاطفتها واحساسها وروحها ، والشاعرة هنا قد صورت واقعا ملموسا وعبرت عن تجربة صادقة عاشتها بكل كيانها ، فهى وان كانت مسلمة عمة رسول الله — ﷺ — فالحزن أكبر والكارثة لا تستطيع أن تتحملها •

وقد بدأت هذه الأبيات بقولها « ألا يا عين » وكررتها فى البيت الذى يليه ، وألا من حروف التنبيه ، وتأتى لتنبيه السامع بأن ما سيأتى بعدها من الكلام هو من الأهمية بمكان •

وقد خاطبت العين وحثتها على أن تسعدها بسكوب الدمع وذرفه ، وأن تطاوعها ما بقيت على قيد الحياة ، ثم تخاطبها ثانية ، وهى تلومها « ويحك » أيتها العين القاسية الجامدة ، اذرفى الدمع وجودى به سخية ، ولكن على من ؟ على نور البلاد وأسعد المخلوقات ، فهو نور الكوكب الأرضى والسراج المنير ، وقد أخذت الشاعرة هذا المعنى من قوله تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » فالنور هو رسول الله — ﷺ — والكتاب المبين هو القرآن الكريم •

ثم تقول للعين فان لامك اللوام وعذلتك الخلائق من المنافقين والكفار ، فقولى لماذا اللوم والعذل فى بكاء نور البلاد جميعا ؟ انه الرسول الكريم — ﷺ — ويأتى البيت الأخير من هذه الأبيات وكأن الشاعرة تريد أن تعلل لهذا البكاء والعويل تقول :

لأمـــر هـــدنى وأذل ركنى وشيب بعد حـــدتها قرونى (١٩)

فهذا البيت صورة صادقة للجـــزع ، ونار ملتهبـــة للوعـــة التى لا حدود لها ، ومن خلاله تحس أن قلب الشاعرة يخفـــق ألمـــا وأن نفسها تضطرم حزنا ، فهذا الحدث قد هدها وأذل ركنها وقضى عـــلى شبابها فأى فداحة وأى خسارة أصابت الشاعرة التى ودت أن تمـــوت ولكنها لا تملك الا ذرف الدموع من تلك العين التى خاطبتهـــا فى أول أبياتها ، وتوسلت اليها أن تطاوعها على البكاء مدة بقائهـــا فى هـــذه الحيـــــاة .

وحقا لقد كانت الأبيات غنية عن الشرح والتوضيح ، والكشف عن صدق الشاعرة التى تلاقت كلماتها وعباراتها باحاسيسها ومشاعرها ، التى فجرت كل هذه الشحنات ، فقد ضمنت الشاعرة أبياتها كثيرا من العبارات والألفاظ التى تتمشى مع الجـــو النفسى وتتـــواءم مع ذلك الاحساس الذى ينتشر ويظهر فى هذه الابيات المعبرة ، ويترك فى نفس من يقرؤها أو يسمعها أثرا حزينا ، ويزيد هذا الاحساس وهذا الأثر فى النفس المسلمة بعد الانتهاء من قراءة أو سماع هذه الأبيات ، لأنهـــا تتعلق بأفضل الخلق ـــ ﷺ ـــ .

وأثر الفاجعة الكبير مسيطر على نفسية الشاعرة ، وقد أدى هـــذا الى عدم التركيز فى أبياتها فنلاحظ عليها التكرار فى هـــذه الابيـــات القليلة مثل قولها « ألا يا عين ، فى البيت الأول والثانى ، ومثل قولهـــا « ويحك » كذلك وقولها عذلتك عاذلة فى شطرة واحدة ، وقولهـــا « نور البلاد » فى البيت الثانى والرابع .

---

(١٩) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٣ القسم الثانى .

فهذه الأبيات الستة نلاحظ فيها كثرة التكرار للفظ الواحد للمعنى الواحد يدلنا على أن الشاعرة لم تفق بعد من الصدمة فهى مشوشة التفكير ، ولو أنها تريثت وعاشت التجربة الشعرية ونظمت تفكيرها لجادت لنا قريحتها بشعر أفضل من هذا بكثير .

وهذه أبيات أخرى لشاعرتنا أروى بنت عبد المطلب « عمة رسول الله - ﷺ - » :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا برا ولم تك جافيا

وكنت بنا رؤفا رحيما بيننا
لبيك عليك اليوم من كان باكيا

لعمرك ما أبكى النبى لموته
ولكن لهرج كان بعدك آتيا

كأن على قلبى لذكر محمد
وما خفت من بعد النبى المكاويا

أفاطم صلى الله رب محمد
على جدث أمسى بيثرب ثاويا

أبا حسن فارقته وتركته
قبك بحزن آخر الدهر شاجيا

فدا لرسول الله أمى وخالتى
وعمى ونفسى قصرة ثم خاليا

صبرت وبلغت الرسالة صادقا
وقمت صليب الدين أبلج صافيا

فلو أن رب النـــاس أبقاك بيننـــا
ســـعدنا ولكن أمـــرنا كان ماضيا
علـــيك من الله الســـــلام تحيـــة
وأدخلت جنات من العدن راضيا (٢٠)

لا ريب أن هذه الأبيات صرخة من الأعماق ، ولا يقرؤها أحد أو يسمعها الا نبض قلبه واهتزت مشاعره ، لأن الشاعرة عرفت كيف تصور الفداحة التى منى بها المسلمون بموت حبيبهم — ﷺ — فقد كان رجاء كل مسلم وبرا بالجميع ، فلم يك جافيا أو فظا غليظا ، ولذلك التف حوله الجميع ،وهو كما قال الله تعالى عنه «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٢١) .

وقد فقدت هذه الرحمة وذلك الحرص على منفعتهم ومصلحتهم فليبك عليك اليوم الجميع ، وهم لا يبكون لموتك فقط ، ولكن لما سوف يحدث من الهرج ، وهنا نحس فى هذه الأبيات بالصدق الواقعى والفنى معا ، وأيضا بحرارة العاطفة وتدفق الشعور ، والاحســـاس العميق بفداحة الكارثة ، فقد جزعت نفسها أشد الجزع وانطاق لسانها يعبر عن ذلك فى ألفاظ كأنها نسيج ثوب لفت بها نفسها فهى تتقلب فيه ولا تستطيع عنه فكاكا لأنه يلازمها فى نومها ويقظتها .

وانظر الى هذا التعبير الحزين « .. على جـــدث أمسى بيثرب ثاويا ؟ ! » وأيضا قولها :

أبا حسن فارقته وتركته ... فحق بحزن آخر الدهر شاجيا

---

(٢٠) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ القسم الثانى ص٩٣ .
(٢١) آخر ســـورة التـــوبة .

فقد أصبح الحزن قطعة من نفسها الى أن تموت ، ونستشف من رثاء هذه الشاعرة أنها كانت ترى الرثاء دينا فى عنقها وتجسده عزاء وسلوانا نحو هذا الحبيب الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور ، وحقا واجبا له ، ولهذا كان رثاؤها من النوع الانسانى غير المتكلف الذى يصدر عن نفس لا تعرف التعقيد أو الزخرف اللفظى .

صدر هذا الرثاء من نفس تحس بلذع الحزن ولا تستطيع أن تخفيه وهذا يفسر لنا خلوه من الفلسفة التى تعتمد على الجدل المنطقى أو العقلى فقد عبرت تعبيرا مباشرا وصبت ما تحسه وما تشعر به تجاه هذا الحبيب وخسارة الاسلام فيه .

وفى هذه الأبيات تتجلى براعة الشاعرة فى فن الرثاء ، فقد نقلته من مسألة فردية الى مسألة عامة يشترك فيها الجميع ، فموت الرسول — ﷺ — خطب فادح ، رزئت به الأمة الاسلامية جمعاء ، وتظهر هذه الحقيقة فى القصيدة عندما تعبر الشاعرة عن المجموع ، وتتكلم بلسان الأمة ، ولا تخص نفسها بالتعبير فتقول مثلا « كنت بنا برا ، كنت بنا رؤفا ، ليبك عليك من كان باكيا ، أبقاك بيننا .. » .

وعندما نعاود القراءة فى هذه الأبيات ، نشعر أن قلوب المسلمين جميعا تخفق ألما وتمتلىء بالحزن الغامر ، فقد بينت فجيعة المسلمين وجسامة الخطب الذى أصابهم فى سويداء القلوب ، وتختتم الشاعرة هذه الأبيات بقولها تخاطب الرسول — ﷺ — :

صبرت وبلغت الرسالة صادقا
وقمت صليب الدين أبلج صافيا

فلو أن رب الناس أبقاك بيننا
سعدنا ولكن أمرنا كان ماضيا

عليك من الله السـلام تحيـة
وأدخلت جنات من العـدن راضيا

فقد صبر الرسول - ﷺ - وصابر حتى بلغ ما أنزل اليه من ربه في صدق ايمان ، وأقام أركان الاسلام ، وتركنا على المحجة البيضاء صافية نقية لا عوج فيها ولا التواء ، واكتمل الدين فلو أن الله أبقاه بيننا لسعدنا بهذا البقاء أيما سعادة ، ولكن أمر الله لابد من نفاذه ، وهذه سنة الله في خلقه ، فقد كتب الموت على كل المخلوقات « كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » (٢٢) .

وتوجه الشاعرة في النهاية السلام والتحية المباركة الى روح رسول الله - ﷺ - وتطلب من الله أن يجمعه بالمصطفين في فسيح الجنات يوم القيامة ، واذا أردنا أن نعقد موازنة بين هذه الأبيات والأبيات الأولى نجد أن هذه القصيدة أجود من السابقة، نحس هنا بحرارة العاطفة وقوة الاحساس وجمال التصوير والتعبير معا ، فهي أقوى من الأولى بكل المقاييس واذا ذهبنا نلتمس لذلك أسبابا ، وجدنا من هذه الأسباب أن الشاعرة قالت هذه الأبيات بعد أن دفن الرسول - ﷺ - وهدأت بعض الشيء من شدة هذه الصدمة وأحست أنها أمام الأمر الواقع وأنها لا تملك من الأمر شيئا ، فلتستسلم للقضاء وترضى بالحكم وتصوغ مشاعرها وتنفس عنها في مثل هذه الأبيات الرائعة الحزينة ، أما الأولى فقد قالتها في بداية الكارثة وقبل أن يدفن الرسول - ﷺ - فجاءت - كما قلنا - أفكارها مشوشة خالية من التركيز والدليل على ذلك قولها في القصيدة الثانية عندما خاطبت الامام علي - كرم الله وجهه - :

---

(٢٢) آخر سورة القصص آية رقم ٨٨ .

أبا حسن فارقته وتركته فبك نحزن آخر الدهر شاجيا

وقولها قبل هذا البيت (على جدث أمسى بيثرب ثاويا ..) .

فهذا يدل على أن القصيدة الثانية قالتها بعد أن أفاقت من هول المصيبة فجاءت مركزة مصورة للمصيبة ونادبة لأشرف الخلق — ﷺ — .

وممن رثى رسول الله — ﷺ — من عماته عاتكة بنت عبد المطلب ، وهى أخت أروى الشاعرة السابقة ، ومن هذا الشعر الذى قالته عاتكة هذه الأبيات التى ذكرها لنا ابن سعد فى طبقاته ، تقول الشاعرة :

عينى جـودا طوال الدهـر وانهمر
سـبكا وسحا بدمـع غير تعـذير

ياعين فاسحنفرى بالدمـع واحتفلى
حتى الممات بسجل غـير منزور

يا عين فانهملى بالدمع واجتهـدى
للمصطفى دون خلق الله بالنـور

بمستهل من الشؤبوب ذى سـيل
فقد رزئت نبى العـدل والخـير

وكنت من حـذر للموت مشـفقة
وللذى خـط من تلك المقـادير

من فقد أزهر صافى الخلق ذى فخر
صاف من العيـب والعاهات والزور

فاذهب حميدا جزاك الله مغفـرة
يوم القيامة عند النفخ فى الصور(٢٣)

والناظر فى هذه الأبيات يرى أنها تمتلىء بالمشـاعر الصـادقة والأحاسيس الفياضة ، فهى مشاعر عمة تعمقها الحزن ، بل ان قلبهـا ليكتوى به ، وهى لا تملك افصاحا عن قوة وشدة حرارته فى أحشائها الا هذه الكلمات المتناعة ، التى تخاطب بها عينيها ، وتحثهما على البكاء طوال الدهر لعلها تجد فيه سلوى ، وفى الدموع ما تغسـل به هـذا الحزن الذى كاد يقتلها ، وهذه الأبيات تحملها كل ما تشعر به من وجد وترفع بها صوتها ، وترجعه ترجيع الوالهة الثكلى ، على من تحب بعـد فقـــــده .

وهذه الشاعرة الحزينة كانت تحذر من الموت ، وتشفق على هـذا الحبيب منه ، وتخشى أن يأتى هذا اليوم وهى على قيد الحياة ، ولكنه

---

(٢٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ القسم الثانى ص٩٣، ٩٤ .
اسحنفرى : أى أكثرى من الدمع جاء فى لسان العرب ص ١٩٥٥ ط دار المعارف اسحنفر المطر : كثر ، وقال أبو حنيفة المسحنفر الكثير الصب الواسع .. الجوهرى : بلد مسحنفر : واسع .. واسحنفر الرجل : اذا مضى مسرعا .
الشؤبوب : الدفعة من المطر الغزير ، فقد جاء فى نفس المصدر ص ٢١٧٥ : قال ابن سيده : الشؤبوب : الدفعة من المطر وغيره ، أبو زيد الشؤبوب المطر يصيب المكان ويخطىء الآخر وشؤبوب كل شىء حده والجمع الشآبيب .

القدر وما كتب فى اللوح المحفوظ منذ الأزل ، فهى لا تملك الا أن تسلم الأمر لله تعالى ، وتصبر ، وتطلب منه تعالى أن يجزيه عنها وعن أمة الاسلام أفضل الجزاء والمغفرة يوم القيامة وعند النفخ فى الصور .

وقد أعطتنا الشاعرة فى هذه الأبيات صورة من صور الحزن على هذا الفقيد الذى هو أشرف خلق الله تعالى ، انه المصطفى — ﷺ — نبى العدل والخير ، وقد حشدت لهـا الشاعرة هـذه المعـانى المؤثرة والألفاظ الشجية التى ينبعث منها الحزن والأسى ، فقـد تكرر لفـظ الدمع فى الأبيات الثلاثة الأول ، وكذلك تكـرر فى البيت الأول ثلاث كلمات خاصة بالدمع وهى : الانهمال والسكب والسـح ، وبمثل هـذا التعبير وذلك التصوير الرائع ، وتلك الموسيقى الداخلية والخارجية ، التى عزفت عليها الشاعرة ألحان اللوعة والحزن لفقد هـذا الحبيب ، وأقول ذلك النجم الذى لا بعد له فى الخلق أحد ، قـد دخـلت الى مشاعرنا ، وجعلتنا نعيش معها بكل أحاسيسنا ومشاعرنا ، وهذا دور الشـعر .

والشاعرة هنا تصور أحزانها وتحث العين أن تترف الدموع الغزار على هذا الحبيب الصافى من العيب والخالى من العـاهات ، بل تقـول للدموع انهمرى بشدة واسكبى بسخاء ، وسحى حتى الممـات ، فليس هناك دموع تبقى أو تختزن بعد موت رسول الله — ﷺ — انها العاطفة الصادقة والحزن العميق والاحساس التام بالفجيعة ، والشعور بالمأساة ، ولا شك أن هذا من أصدق ألوان الرثاء .

وفى أبيات أخرى ترثى بها هذه الشاعرة رسـول الله — ﷺ — تقول فى تعبير مؤثر يسيل الدمع من العيون :

يا عـين جـودى ما بقيت بعبرة
سـحا على خـير البرية أحمـد

يا عين فاحتفلي وسحي واسجمي
وابكي على نور البلاد محمد

أنى - لك الويلات - مثل محمد
في كل نائبة تنوب ومشهد

فابك المبارك والموفق ذا التقى
حامي الحقيقة ذا الرشاد المرشد

من ذا يفك عن المغلل غلة
بعد المغيب في الضريح الملحد

أم من لكل مدقع ذي حاجة
ومسلسل يكسو الحديد مقيد

أم من لو حي الله يترك بيننا
في كل ممسى ليلة أو في غد

فعليك رحمة ربنا وسلامه
ياذا الفواضل والندى والسؤدد

هلا فداك الموت كل ملعن
تنكس خلائقه لئيم المحتد(٢٤)

فهنا ترى أن الشاعرة تدور في فلك الأبيات السابقة ، فكما استهلت أبياتها المتقدمة بمخاطبة العين فعلت هنا ، وكأنها لا تملك الا الدموع ، وخاطبت العين وأمرتها أن تجود بالدموع ما بقيت في هذه

---

(٢٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ القسم الثاني ص٩٤ .

للحياة الدنيا ، وآن تسكب العبرات على خير البرية أحمد — ﷺ — فهى تبكى على فقيدها وتشيد به ، بل وتجرد من عينها شخص تخاطبه ، وتدعو عليه بالويل والثبور وتقول له « لك الويلات » هل يوجد مثل محمد — ﷺ — ؟ وهل تحل بالمسلمين كارثة مثلما حلت بموته ؟ فابك ما استطعت الى انتهاء الحياة وانقضائها .

وكأن الشاعرة ترى فى ذلك ما ينفس عنها بعض الشىء ، وتخفف به عن نفسها الحزينة ، فهى تداوى القرح بالقرح ، وتبكى وتعدد مناقب الرسول — ﷺ — لعلها تنفس الكرب وتسكن بعد ثورة النواح والأنين .

والشاعرة فى هذه المرثية — كما فى غيرها — تصور فجيعة الأمة الإسلامية ، فكلها تدور حول صفات الرسول — ﷺ — الكريمة ، وجوده وسخائه ، وشجاعته ، وقد صاغتها على شكل أسئلة لتكون أبلغ ولا يستطيع انكارها أحد فمثلا تقول : « من ذا يفك عن المغل غله ؟ » من يفك دين هذا المغل ، ويقضى عنه دينه ، بعد غياب هذا الجواد فى ضريحه الشريف ، أو من لصاحب الحاجة وهذا الفقير المدقع فى الفقر من يعطيه ما يحتاجه ويمد له يد العون والمساعدة ومن لهذا المقيد فى السلاسل الحديدية داخل نفسه أو فى داخل مجتمعه ، من يفكه من تلك القيود ، ويطلقه من هذه السجون ، بعد الحبيب المصطفى — ﷺ — ؟.

والأدهى من ذلك والأمر من سيأتى عليه وحى السماء ، وينزل عليه جبريل — عليه السلام — بالآيات البينات ، بعد النبى الخاتم والرسول الكريم — ﷺ — .

انها مرثية مليئة باللوعة الشديدة عليه والبكاء على المحتاجين والضعفاء،

من يكون لهم من بعده ؟ فقد اهتز ركنهم ، وضعفت شوكتهم ، بل لقد انكسرت هذه الشوكة ، وأصبحوا حيارى يتخبطون فى الظلمات •

ونرى الشاعرة فى هذه الأبيات تميل الى التلوين فى أسلوبها ، واستطاعت أن تستخدم أسلوب الاستفهام استخداما دقيقا مطوعا بدون تكلف ، ومن قبله استخدمت أسلوب النداء للعين ، وكأنها انسان يعقل ، ويعرف قدر الحبيب — ﷺ — •

كذلك لا ننسى دور الخيال الخصب ، والعبارات الدقيقة والألفاظ الجزلة فى تجسيم مشاعر الحزن والألم لفقد المصطفى — ﷺ — الجدير بكل الحزن لأنه أفضل الخلق على الاطلاق •

والأبيات فى جملتها مثال واضح بشعر الرثاء الجيد ، الذى وفرت له صاحبته كل عناصر النص الكامل من الفكرة والأسلوب والتجربة الشعرية والخيال المحلق •

فالفكرة نابعة من واقع ملموس وحقيقة ثابتة ،وهى فقد خير خلق الله كلهم — ﷺ — وهذا كان له أثره البالغ على نفوس المسلمين، فأوحى للشاعرة بهذه الفكرة التى تدور حول مأساة كل مسلم باغتته الأحداث فى كل بقعة من بقاع الأرض ، خاصة الذين كان يساعدهم المصطفى — ﷺ — من المحتاجين والضعفاء وهو صاحب فضل على الجميع •

وقد رأت منه الشاعرة الأخلاق الكريمة والسلوك الرفيع ، الذى تعلمه من القرآن الكريم ، وأدبه به مولاه تبارك وتعالى « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ومن ثم كان رثاؤها صادقا معبرا عن تجربة مشعرية عاشتها وسبرت أغوارها وتعايشت معها ، فانفعلت بها واستجابت لها ، وكشفت عنها بأسلوب وكلمات تلائم تلك التجربة لأن حسن اختيار

الكلمات الموحية بطاقتها وجرسها ومعناها يعد أول خطوة من البناء الفنى ، وأن تأثير الكلمات يتفاوت قوة وضعفا تبعا لنوعها ، لأن هذه النوعية تلعب دورا مهما فى الايحاء برؤية الشاعر .. »(٢٥) وكيف لا والشاعرة تردد الصورة التى لحقت بهؤلاء الضعفاء الذين كانوا يستمدون قوتهم منه — ﷺ — ويأخذون كل ما يحتاجون اليه ، بل كان يفضلهم على الأقرباء وذوى الأرحام والأقوياء .

وكيف لا ، والشاعرة ترى أن الوحى الذى هو شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، وفيه تشريع لما يجرى بينهم وفى حياتهم الدنيا ، سينقطع ولا ينزل الروح الأمين الى الأرض ثانية ، وهى هنا تؤمن بأن هذا الفقيد نور البلاد ، واصطفاء رب العباد ، وخاتم الرسل والأنبياء — ﷺ — وتختم الشاعرة هذه الأبيات بالسلام على رسول الله — ﷺ — والمغفرة والرحمة له من الغفار الرحمن سبحانه وتعالى ، لأنه صاحب كل فضل وكل جود ، فهو سيد ولد آدم ولا فخر .

وفى مرثية ثالثة تقول عاتكة بنت عبد المطلب — رضى الله عنها :

أعينى جودا بالدموع السواجم
على المصطفى بالنور من آل هاشم

على المصطفى بالحق والنور والهدى
وبالرشد بعد المندبات العظائم

وسحا عليه وابكيا ما بكيتما
على المرتضى للمحكمات العزائم

---

(٢٥) النقد التطبيقى والموازنات ص ٢٦ د. محمد الصادق عفيفى .

على المرتضى للبر والعدل والتقى
وللدين والاسلام بعد المظالم

على الطاهر الميمون ذى الحلم والندى
وذى الفضل والداعى لخير التراحم

أعينى ماذا بعدما قد فجعتما
به تبكيان الدهر من ولد آدم

فجودا بسجل وانديا كل شارق
ربيع اليتامى فى السنين البوازم(٢٦)

فهذه الأبيات كسابقتها يغلب عليها طابع الحزن العميق ، وتفيض بالألم المر ، والشاعرة هنا تميل الى ذكر مناقب المصطفى — ﷺ — والثناء عليه ، فهى حريصة على ذكر الكثير من فضائله والتى لا تحصى ، وأخلاقه العظيمة ، فهو المصطفى الذى جاء بالنور « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وأيضا جاء بالحق والهدى والرشاد والعدل والتقى والبر ، وقد جمع كل المزايا والفضائل فى الدين الاسلامى الذى جاء به ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويجعل منهم أمة تقود العالم بعد الجهل والضلال والتمزق ، بل يجعل العالم كله أسرة واحدة ترعى مصالح بعضها بعضا فهذه الصفات الكريمة والأخلاق العالية ، التى نادى بها صاحب الشريعة الغراء ، جعلت منه قائدا وزعيما ، وأخا وصديقا ، وسياسيا ومعلما ، وهى صفات ومناقب لم تجتمع لواحد غيره — ﷺ .

والشاعرة عندما تصر على ذكر هذه الصفات ، وترددها فى هذه

---

(٢٦) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ القسم الثانى ص ٩٤ .

الأبيات تدعو للاقتداء بها ، ويتأسى بها الآخرون من بعده فى سيرهم وأخلاقهم ، هذا الى جانب اظهار حرقة الألم ومرارة اللوعة ، والتعبير عن أثر الفجيعة فى نفوس المسلمين ، ولتظهر أن موت الرسول — ﷺ — انما هو مصيبة عامة وخطب جسيم ، لأنها تناولت حياة المرثى — ﷺ — من جوانبها المختلفة ، فكما تناولت الجانب الشخصى له من حيث كونه نورا وهاديا ومرشدا ..

تناولت كذلك الجانب الانسانى والاجتماعى والخلقى ، وما أسداه لأمته — ﷺ — من أعمال جليلة متمثلة فى وجوه الاصلاح والبر والخير والنفع العام ، وما كان له من آثار عظيمة فى كل شئون الحياة المتصلة بالدين أو الدنيا .

ومن هنا كان يجب على العيون أن تجود عليه بالدموع السواجم الغزار ، وأن تسح عليه وتبكى طول الدهر ، ولا تكف عن هذا البكاء فى ليل أو نهار ، فاذا لم تبك هذه العيون لفقد الحبيب والمعلم العظيم الذى أقام الدين ، وحرر الانسان من قيد العبودية ، وآثار الدنيا بعد ظلامها ، فعلى من يكون البكاء من ولد آدم ؟! والاجابة الشافية عن هذا السؤال هى : لا يوجد أحد بعده يستحق البكاء ، ولا توجد مصيبة يحزن لها القلب بعد موته — ﷺ — وقد عبرت الشاعرة عن هذا المعنى بتعبير قوى له قيمته وهو :

أعينى ماذا بعد ما قد فجعتما به ثبكيان الدهر من ولد آدم

ونحس من خلال هذا التعبير الصدق الفنى والواقعى الحقيقى ، الذى لا يختلف عليه اثنان من المسلمين ، فلا مصيبة تحزن الانسان بعد فقد نبى الرحمة — ﷺ —

وقد حشدت الشاعرة الألفاظ التى توحى بعظم هـذه المصيبة فى تلك الأبيات وقد كانت موفقة الى حد كبير ، فقد رأينا هذه الألفاظ تنطق بما تحسه الشاعرة من ألم وحزن وحيرة حتى على الآخرين مثل قولها « الدموع ، السواجم » « المندبات العظائم » و « سحا ، وابكيا ، ما بكيتما ، فجودا بسجل واندبا •• ربيع اليتامى ، السنين البوازم •• كل هذه الألفاظ تملأ الأبيات بجو الكآبة والحزن العميق ، وقد برعت الشاعرة فى هذا لتجعل المتلقى يعيش معها ويحس ويشعر بما نحس به ونشعر ، وهذا هو الشاعر الذى يجعل فنه خالدا وكلمته فيها حياة وروح على كر السنين والدهور •

ولم تنس الشاعرة أن تستخدم معجما شعريا خاصا يزيد من اللوعة والحرقة وفداحة المصيبة وهذا المعجم وان حمل فى ألفاظه الخارجية البهجة الا أنه فى معناه يحمل قمة الأسى والألم وذلك مثل قولها : النور ، الهدى ، الرشد ، للبر ، العدل ، التقى ، الطاهر ، الميمون ، « ذى الحلم والندى » •• الخ فهذه الألفاظ فى الحقيقة تزيد فى الحسرة والتفجع •

وهذا يحسب للشاعرة ويوقفنا على حسن استعمالاتها لهذه الألفاظ واختيار ما لهذا المعجم الذى يبدو متناقضا فى الظاهر ولكنه فى الحقيقة فى قمة الانسجام والتوافق •

ونسير مع عمات النبى — ﷺ — اللاتى رثينه ، فهذه أبيات للسيدة صفية بنت عبد المطلب — رضى الله عنها — ترثى بها رسول الله — ﷺ — تقول فيها :

لهف نفسى وبت كالمسلوب
آرق الليل فعلة المحروب

من همـوم وحســرة ردفتنى
ليـت أنى ســقيتها بشــعوب

حين قالوا ان الرســول قــد أمسى
ووافتـــه منيـــة المكتــوب

اذ رأينـــا أن النبى صريــع
فأشــاب القــذال أى مشـــيب

اذ رأينـا بيـوته موحشـــات
ليس فيهن بعـــد عيش حبيبى

أورث القلب ذاك حزنا طــويلا
خــالط القلب فهــو كالمرعــوب

ليت شعرى وكيف أمسى صحيحا
بعد أن بين بالرســول القريبه

أعظم النــاس فى البرية حقــا
ســيد النــاس حبه فى القلوب

فالى الله ذاك أشــكو حســبى
يعـلم الله حــوبتى ونحيبى(٢٧)

برعت الشاعرة فى هذه القصيدة ، عندما رثت الحبيب ـ ﷺ ـ فقــد رأينا من خلال كلماتها المجال الفسيح للنواح والبكاء ، وانطلقت فيها عواطفها المتأججة الصادقة ، ولجأت الى دموعها عندما قسا عليها الدهر واشتد ، وانها لتوالى بكاءها وتستطيله على ابن أخيها ، وهنا تجد

---

(٢٧) فى الأصل : فالى الله ذاك أشكو وحسبى يعلم الله حوبتى ونحيبى
راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٤ : ٩٥ .

الشاعرة نفسها ، وتصغى الى نجوى قلبها وحنين روحها ، وتوغـر فى أغوار ذاتها ، وبهذا وضعت الشاعرة فى ديوان الشعر العربى الصورة المفتقدة لرثاء المرأة لرسول الله — ﷺ — .

وقد أتيح لها أن تعـزف على ذلك الوتر العميق فى وجـدان كل مسلم ، انه الحزن والأسف والوجدان على فقد نبى الحـق والرحمـة — ﷺ — والشاعرة فى أبياتها لا تفتـأ تضرب عـلى هـذا الوتر ، ولا يغيب عنها لحظة واحدة ، فهو الشجن الجانح فى أغوار الأنثى ، والعمة على وجه الخصوص .

ونستطيع أن نقول ان كل قصائد السيدة صفية رضى الله عنها — وغيرها من قصائد النساء فى هذا الغرض ، تصدر من ذلك الحزن الموغل فى العمق ، كاشفة عنه الحجب والأستار ، وعندما نقرأ هذا الشعر نجد أنفسنا بقدر ما يتاح لنا من اتصال بأعماقنا ، ووعى لذاتنا ، واصغاء الى خفى مشاعرنا ، بين هذه الأصداء الوجدانية المشحونة بالشجن ، انـه ذلك النغم الحزين القاسى المعبر عن هموم وأشواق كبار ، المترجم عن مشاعر خفية وحنين مستثار ، فهو مسـجل لوقع الوجـود على حس شاعرة تجد نفسها أمام كبرى المصائب فصدمة الموت — خاصة لرسول الله — ﷺ — تثير كل بنى البشر من المسلمين ، والحزن عليه لا يختص به انسان دون آخر ، وان لم يملكوا جميعا وسيلة التعبير عن هذا الحزن العميق ، لكن ليس كل انسان فى قـدرته أن يوغـل فى أعمـاق الذات الانسانية ويكشف عنها الحجب والأستار ، ويصغى الى خفى انفعالاتها لهذا الحدث الجلل ، كما فعلت الشاعرة ، ولخـواتها الشاعرات الراثيات رثين رسول الله — ﷺ — .

والشاعرة فى هذه الأبيات قد أجادت فى رسم الصورة الحـزينة

بتلك الكلمات المعبرة ، الصادقة ، فقد استهلتها بقولها « لهف نفسى » انه التلهف واللوعة والحسرة لهذا الخطب الجسيم ، الذى جعلها تعيش لحظات الليل فى أرق وقلق كالتى سلب منها أغلى شىء فى حياتها ، وتلك الهموم وهذه الحسرات التى لازمتها عندما علمت أن المنية قد وافت الرسول — ﷺ — وأن العمر قد انقضى ، والكتاب بلغ أجله ، ورأت الرسول — ﷺ — فى أكفانه ، فمن شدة هذه الفجيعة شاب رأسها وشعر قذالها ، وأورثت القلب حزنا طويلا ، فهو يدق كالمرعوب .

وتعاود الشاعرة شريط الذكريات والنبى — ﷺ — بينهم وتقرر حكما مؤداه استحالة الحياة بعده ، فهى لا تتصور العيش بعد فقد الحبيب — ﷺ — وهذا المعنى والحكم ينطق به برقها الذى تقول فيه

ليت شعرى وكيف أمسى صحيحا بعد أن بين بالرسول القريب ؟!

ورغم هذه الحسرات وتلك الأنات والزفرات ، وذلك الرثاء القوى الذى يدل على عظم حزن الشاعرة ، وكثرة بكائها ، تقول اننى لا أستطيع أن أعبر عن حزنى كما أحسه أو كما ينبغى أن أعبر عنه ، فاللسان عاجز والكلمة قاصرة ، اللسان عاجز عن التعبير والنطق ، والكلمة قاصرة عن التصوير ، فحزنى أقوى وأشد من أن تصوره هذه الألفاظ ، فلا يعلمه الا الله تبارك وتعالى .

فالى الله ذاك أشكو وحسبى يعلم الله حوبتى ونحيبى

وفى قصيدة أخرى لهذه الشاعرة تصور لنا فيها فجيعتها وفجيعة المسلمين فى هذا الخطب الجسيم تستخدم فيها الألفاظ الموحية لهذا الغرض ، وقد بدأتها بخطاب السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها تقول فيها :

أفاطـــم بكى ولا تســـأمى
بصـبحك ما طـلع الكـوكب

هو المرء يبكى وحـق البكـاء
هـو المـاجد السـيد الطيب

فأوحشـت الأرض من فقـده
وأى البريـــة لا ينكـــب

فمـالى بعـدك حتى المـــا
ت الا الجوى الداخل المنصـب

فبكى الرســول وحقـت لـه
شـــهود المدينـــة والغيـب

لتبكيـك شـمطاء مضـرورة
اذا حجب النـاس لا تحجب

ليبكيـك شـيخ أبـو ولـدة
يطـوف بعـوقته أشـــهب

ويبكيـك ركـب اذا أرمـلوا
فـلم يلف مـا طـلب الطلب

وتبـكى الأباطـح من فقـده
وتبكيـه مكـــة والأخشـــب

وتبـكى وعيرة من فقـــده
بحـــزن ويسـعدها الميشـب

فعينى مـالك لا تدمعـين ؟
وحـق لدمعـك يستسـكب(٢٨)

وأمام هـذه الكلمات التى تمتلىء بالدمـوع السـاخنة وتفيض بالعبرات المؤثرة ، يقف المرء عاجزا ، فماذا عساه أن يقول ؟! ان القلم لا يستطيع أن يصور هذه الزفرات الصادقة التى احتوتها الأبيـات ، والتى صدرت عن نفس مكلومة ، فقد نفذ الجرح الى أعماقها ، وأدمى قلبها قبل عيونها .

بدأت الشاعرة هذه الأبيات بنـداء أحب الخلق الى رسـول الله — ﷺ — هى السيدة فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — وأمرتها أن تبكى ولا تسأم أو تمل هذا البكاء من اقبال الليل وطلوع النجـوم الى الفجر وهذا كناية عن طول البكاء ووقته فهى تقصد ألا تكف عنه طيـلة حياتها فى ليل أو نهار ، ولعلها تنفس عن حزنها ، وتجـد فيـه سلوة وعزاء ، لأنها فقدت أشرف خلق الله تعالى ، فهو جـدير بالبكـاء من الجميع ، ويجب أن تبكى عليه بدل الدموع دما ، ونحزن ولا يفارقنـا هذا الحزن أبدا ، فهو السيد المـاجد ، الطيب الطاهر وقـد أوحشت الأرض من فقده ، بل لقد بلت عليـه هـذه الأرض التى لا تعقـل ، ولا يوجد انسان مسلم فى هذه البرية الا وقد نكب بموته ، وأصـابه الهلع والألم .

وترجع الشاعرة الى نفسها قائلة « فمالى بعدك حتى المـات » الا الحزن والتعب والألم النافذ فى الفؤاد ، ويشاركنى فى هذا الألم وتلك اللوعة ، أهل المدينة الشاهد منهم والغائب ، فهى تعبر عن الجماعة

---

(٢٨) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٩٥ القسم الثانى .

بعد نفسها ، فيجب أن يحس هؤلاء ومن يأتي بعدهم بهـذا الأحساس الفظيع وذلك الشعور الحزين .

والدليل على ذلك أن الشاعرة قد صبت هـذه الأنات الحـائرة الحزينة ، فبدأت كل بيت من هذه الأبيات بلفظ البكاء ، فهى لم تتمالك نفسها ، واسترسلت في البكاء ليشاركها الناس جميعا (جميع المسلمين) بمختلف طبقاتهم وأعمارهم فى هذا البكاء والحزن ، لا فرق بين كبير وصغير ، وذكر وأنثى ، فمثلا تقول : لتبكيك هذه العجوز التى أصـابها الضر والأسى بعد أن فقدت من يسأل عنها ويمد لها يد العون والمساعدة، وأيضا هذا الشيخ الفانى ، وذلك الركب المحتاج ، وكل هؤلاء كنت لهم عونا وملاذا فحق لهم أن يبكوا عليك وأن يزرفوا الدموع بسخاء .

بل ان الشاعرة تجعل الجماد يحس بعظـم الكارثة ويشاركها فى هذا الحزن والبكاء فهى تقول :

« وتبكى الأباطح من فقده وتبكيه مكـة والأخشب »

فالجماد الذى لا يحس ولا يعقل جعلته يدرك مدى هذه الفجيعة، عندما فقد رسول الله — ﷺ — .

وهذا يدل على صدق العاطفة ، ومعـايشة الشـاعرة لتجربتهـا الشعرية ، وتلك الفكرة التى تريد أن تجعـل الناس يعيشونها معهـا ، فاذا كان الجماد الذى لا يعقل قد بكى على فقده ، فكيف يكـون شعور الانسان المسلم العاقل ، الذى جاء هذا الرسول بالخير وبالهدى والنور والرشاد من أجله ؟!

ان الحزن الذى يسيطر على شعور هذه العمة الفاضلة ، أصـيل لأنها قد ترت فى أحب الناس اليها وهذا الشجن المـر الذى يفيض به

كأسها ليس الا وحيا من عواطفها الصادقة ، وقلبها المملوء بالجراح ، وشعورها بالضياع والهوان هى والأمة الاسلامية جمعاء ، فقد انهدم ركنهم وفقدوا ملاذهم ونصيرهم الوحيد ، والذى لا يستطيع أحد أن يملأ ما تركه من فراغ .

وفى أبيات أخرى تقول السيدة صفية بنت عبد المطلب — رضى الله عنها — مصورة للوعتها وحزنها تجاه ابن أخيها — ﷺ — :

أعينى جودا بدمع سجم ... يبادر غربا بما منهدم
أعينى فاستنفرا واسكبا ... بوجد وحزن شديد الألم
على صفوة الله رب العباد ... ورب السماء وبارى النعم
على المرتضى للهدى والتقى ... وللرشد والنور بعد الظلم
على الطاهر المرسل المجتبى ... رسول تخيره ذو الكرم(٢٩)

وكذلك الشاعرة فى مراثيها لحبيبها — ﷺ — تخاطب عينيها وتحثها على الدمع ، وأن يجودا به فى سخاء ، وبحرقة وحزن شديد ، على صفوة الله رب العباد ورب السماء ، وخالق كل شىء ، وهذا تشريف لرسول الله — ﷺ — من الله تعالى له ، فقد اختاره واصطفاه خالق الخلق وجعله أفضل خلقه ، فهو مرتضى ومجتبى من قبل الله تبارك وتعالى — للهدى والتقى والرشاد ، والنور الايمانى بعد ظلام الكفر والنفاق ، وليقود سفينة العالم الى الأمان ويهدى البشرية الى أقوم سبيل .

وهو الطاهر المطهر الذى أرسله ربه ،وتعهده برعايته وصنعه على

---

(٢٩) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٥ القسم الثانى .

عينه ، ليكون للمسلمين قائدا ، وللناس هاديا ومبشرا ونذيرا ، فـلابد للعين أن تجود لفقده بالدمع الغزير ، ولابد للقلب أن يحـزن الحـزن العميق ، لأن الركن الشديد الذى تأوى اليه الأمة الاسلامية قد انهدم ، فأصبحت تائهة ، تتخبط فى بحار متلاطمة الأمواج من الحيرة .

وهنا نرى براعة الشاعرة فى افصاحها عن تجربتها الشـعرية ، وتعبيرها بهذه العاطفة الجياشة عند تلك الكارثة ، فقد صورت شعورها الذاتى . الفردى ، وشعور المجتمع الاسلامى كله ، لأنها واحدة من هذا المجتمع ، فالوجد والحزن الشديد ، والألم النافذ الى الأعماق قد أصاب جميع المسلمين لفقد صفوة الله من خلقه ، وأحبهم اليه والى المسلمين .

ومن خـلال معجم الشـاعرة الذى استخدمته فى توضيح هـذه الصورة ، واخراج هذه التجربة نلاحظ دقتها فى اختيار هذا المعجم ، وتوظيف كل كلمة فيه لتقوم بدورها فى ابراز هذه الصورة ، فقد اتحدت كل كلمة مع أختها لتعطينا هذه الحيـوية التى نطقت بهـا عاطفتهـا ، وصورها شعورها فنرى مثلا كلمة « فاسحنفرا » وهى كلمة قوية تدل على عظم المصيبة ، وتحتاج الى قاموس ليفسر لنا معناها ، وهو المطر الكثير الصب أو الواسع ، واستخدمت فى نفس الوقت بعض الألفاظ السهلة مثل « وجد وحزن ، وصفوة ، ورب السماء » فتجد براعتها فى عنايتها باختيار هذا المعجم بين السهولة والقوة لتجعلنا نعيش معهـا هـذه التجـربة .

وتقول السيدة صفية بنت عبد المطلب ـ رضى الله عنهـا ـ فى رثاء المصطفى ـ ﷺ ـ مترجمـة كـذلك عن عواطفهـا ومصـورة لأحاسيسها :

أرقـت فبـت ليلى كالسليب لوجد فى الجوانح ذى دبيب

فشيبتى وما شـابت لداتى — فأمسى الرأس منى كالعسيب
لفقد المصطفى بالنور حقـا — رسول الله ما لك من ضريب
كريم الخيم أروع مضرجى — طويل الباع منتجب نجيب
تمـالى المعـدمين وكل جـار — ومأوى كل مضطهد غريب
فاما تمس فى جـدث مقيمـا — فقدما عشت ذا كرم وطيب
وكنت موفقـا فى كل أمـر — وفيما ناب من حدث الخطوب (٣٠)

حينما نتأمل مطلع هذه الأبيات ندرك أن الشاعرة لم تتمالك نفسها أمام هـذه المصيبة ، حيث انها لم تستطع أن تكتم انفعالاتها ، ولم تسيطر على مشـاعرها وعواطفها ، بل انطلقت فى شـاعرية ثائرة ، وعواطف فياضة ، فقد أرقها الحزن والوجد ، وباتت وقد سلب منها كل شىء حتى النوم من العيون ، فهى مهيضة الجنـاح ذليلة الجانب ، وبسبب ذلك هذا الوجد والألم الذى استفحل فى قلبها وتمكن فى جميع أعضاء جسمها الداخلى .

وتعطينا الشاعرة صورة خارجيـة لنفسها بعـد تلك الصـورة الداخلية ، فقد شابت قبل أقرانها ولداتها فى العمر ، ورأسها أمسـت كعسيب النخـل الذى يترنح من شـدة الرياح فهى تدور بين الأفكار والذكريات ، وكل ذلك :

لفقـد المصطفى بالنـور حقا — رسـول الله ما لك من ضريب

---

(٣٠) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٥ القسم الثانى .

ان الحزن المشتعل فى نفس الشاعرة اثر فقدها للمصطفى - ﷺ - قد امتزج بها امتزاجا كليا فى الظاهر والباطن ، فحول فكرتها الى العمق بدلا من السطحية ،وجعلها تصدر فيها عن عاطفة صادقة وجياشة، هذه العاطفة قد أثخنت بالجراح وأحست مرارة الفقد والألم ، فهى عاطفة انسانية عميقة ، تجعل من الحزن ما يصهر النفوس ويقويها ، ينقى الأحاسيس من الشوائب ويجعلها فى موقف بين الصبر والشعور بمرارة الفراق .

وهذا ما جعلها تسرد بعضا من فضائله - ﷺ - فهو كريم الخيم فى ظاهره وباطنه رائع بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، طويل الباع ، وهذا كناية عن جوده وسخائه وبذله لكل ما يصل الى يده من مال ، للمحتاجين ، ويقف بجانب المضطهد المظلوم الذى يعيش بعيدا عن أهله بلا عشيرة أو قرابة ، فكان هو مسنده وقوته ، يحمى الجار ويحض على اكرامه وعدم ايذائه ...

ومن خلال كل هذا نشعر بصدمة الشاعرة ، بل وجميع المسلمين، تجاه هذا الفقد والذى تجمع فى لحظة قاسية فاصلة ، بين عالمين مختلفين ، عالم الجسد وعالم الروح ، عالم الغيب وعالم الشهادة ، وماذا تجدى الكلمات ، وقد أوشك أن يدخل هذا الحبيب الى مقره الأخير فى عالم الخلود عند مليك مقتدر .

فاما تمس فى جدث مقيما　　　فقدما عشت ذا كرم وطيب

وبعد أن تهدأ الشاعرة بعض الشىء وتثوب الى رشدها ، وتعاود شريط الماضى بذكرياته الجميلة ، ترسم صورة مشرقة للرسول - ﷺ - وهى صورة سلوكية له ، توحى فى مجملها باستيعاب الشاعرة لسيرته ، وتعبر فى ألفاظ قليلة عنها ، وهى أنه كان موفقا فى كل أمر من أمور المسلمين الدينية والدنيوية :

وكنت موفقـــا فى كل أمـــر وفيما ناب من حـــدث الخطوب

ونمضى مع هذه الشاعرة فى رثائها للحبيب — ﷺ — ونقـــف عند هذه الأبيات التى تعطينا فيها صورة صادقة للرســـول — ﷺ — تقـــول فيهـــا :

عين جـــودى بدمعـــة تسكاب للنبـــى المطهـــــر الأواب
واندبى المصطفى فعمى وخصى بدمـــوع غـــزيرة الأســـراب
عـــين من تندبين بعـــد نبى خصـــه الله ربنـــا بالكتـــاب
فاتـــح خـــاتم رحيـــم رؤوف صـــادق القيـــل طيب الأثواب
مشفق ناصح مشفق علينـــا رحمـــة من الهنـــا الوهاب
رحمـــة الله والســـلام عليـــه وجزاه المليك حسن الثواب(٣١)

فمن يقرأ هذه الأبيات وينظر اليها ، يرى فيها صورة الحزن على رسول الله — ﷺ — التى حشدت لها الشاعرة هذه الألفاظ الشجية ، وقد انبعثت منهـــا الحـــزن والأسى ، وتستهلها — كبعض قصـــائدها الأخرى — بحث العين على أن تسكب الدموع الغزيرة ، على هـــذا النبى المطهر الأواب .

وتكرر الشاعرة لفظ الندب بصيغة الأمر أولا ثم بصيغة الحـــال والاستقبال ثانيا ، وبذلك ترسم لنا صورة أليمة لفداحة المصيبة ، فاذا لم تندب الشاعرة هذا الرسول — ﷺ — فمن تندب اذن ؟ ومن يساويه فى درجته أو فى مكانته ؟ لا يوجد أحد أن يساوى أو يقارب الرسول

---

(٣١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ القسم الثانى .

فى مكانته أو درجته ، فقد خصه الله بالكتاب وهو القرآن الكريم ، وأيضا فهو النبى الفاتح الخاتم ، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، وهو الصادق فى كل ما ينطق ويتكلم « وما ينطق عن الهوى » ، وكذلك هو الشفيق الناصح لأمته ، رحمة للعالمين من الله الوهاب الكريم •

وقد استمدت الشاعرة هذه الألفاظ ، وتلك المعانى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، والدليل على ذلك أن هذه الأبيات فيها تضمين واقتباس من القرآن الكريم والسنة ، فمن هذا مثلا « فاتح خاتم » تشير الى الحديث الشريف الذى يقول « •• أنا الفاتح الخاتم •• » وقولها « رحيم رؤوف » تشير الى قوله تعالى « بالمؤمنين رؤوف رحيم » وقولها «صادق القيل» تشير الى قوله تعالى «وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » وقولها « رحمة من الهنا » تشير الى قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » •

والشاعرة هنا نراها تسيطر عليها الروح الاسلامية ، التى تلقتها وتعلمتها من رسول الله — ﷺ — وقد أخذتها من القرآن الكريم — كما أشرنا — ، وفى النهاية تقول لنا ان المصيبة عامة ، وليست خاصة بأقربائه فقط ، فهو أسدى للجميع الخير والمعروف ، فنسأل الله جل جلاله الرحمة له والسلام عليه ، وجزاه الله عنا وعن الاسلام والمسلمين خير الجزاء وأفضل ما جزى الله به نبيا عن قومه •

وفى أبيات أخرى تقول شاعرتنا السيدة صفية بنت عبد المطلب — رضى الله عنها :

عين جودى بدمعة وسهود ... واندبى خيرها لك مفقود
واندبى المصطفى بحزن شديد ... خالط القلب فهو كالمعمور

كـدت أقضى الحيـاة لمـا أتاه قـدر خـط فى كتـاب مجيـد
فلقد كان بالعبـاد رؤوفـا ولهم رحمـة وخـير رشـيد
رضى الله عنـه حيـا وميتـا وجزاه الجنان يوم الخلود(٣٢)

بدأت الشاعرة أبياتها بهذا المطلع الذى تعودت عليـه ، وأصبح لديها ركنا أساسيا فى رثائها ، وهو مخاطبـة العين وحثها على زرف الدموع الغزار ، وربما كررت هذه الألفاظ التى تخاطب بهـا العين فى أكثر من موضع ، وفى أبيات متتالية لقصيدة واحدة ، ـ كما مر بنا ـ وهذا يدل على صدق رثائها وعدم تكلفه ، لأنه نابع من حزنها الشديد ، وحرقتها ، فهى تندب وتبكى خير فقيـد ، وكادت الشـاعرة أن تودع الحياة عندما أتاه الأجل ، ولبى نداء ربه ، وما كان له أن يتخلف عنه ، لأن الله جعل لكل أجل كتاب .

وأمام هذا القدر الذى سجل فى اللوح المحفوظ ، لم تجد الشاعرة الا البكاء والندب والنواح ، ولم تجد كذلك الا الحزن الشديد ، الذى خالط القلب وتربع فيه وتمكن منه ، فكاد يقضى عليه ويقطع عـروقه وشـرايينه .

فهذه بلاشك صورة تثير المشاعر وتحـرك الوجـدان وتشـعل العواطف ، ويكفى أنها تمثل تجربة واقعية عاشتها الشاعرة ، وأحست بها فى داخل نفسها الموتورة ، وهذا ما جعلها ترسم لنا هذه الصـورة الأليمة المؤلمة ، بذلك الايقاع الحزين الذى نكاد نراه ونلمسه ، فقـد سيطر عليها الحزن العميق ، فكثر بكاؤها وأنينها ، وتمنت الموت قبـل

---

(٣٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ القسم الثانى .

وقوع هذا الخطب الجسيم، ولكن هذا قدر الله ، كتبه فى الكتاب المجيد قبل أن يخلق هذا العالم وهذه الدنيا ، ولا مبدل لكلمات الله .

وفى نهاية الأبيات تودع الشاعرة الرسول — ﷺ — بهذا الدعاء وتطلب له من الله الرضوان فى حياته ومماته ، وأن يجزيه الله تعالى خير الجزاء وهو يتمثل فى جنات الفردوس يوم القيامة والخلود .

وفى أبيات أخرى تقول السيدة صفية بنت عبد المطلب — رضى الله عنها — :

آب ليلى على بالتسهاد ... وجفا الجنب غير وطاء الوساد
واعتدتنى الهموم جدا بوهن ... لأمور تزلن حقا شداد
رحمة كان للبرية طرا ... فهدى من أطاعه للسداد
طيب العود والضريبة والشيـ ... ـيم محض الأنساب وارى الزناد
ثبلج صادق السجية عفا ... صادق الوعد منتهى الرواد
عاش ما عاش فى البرية برا ... ولقد كان نهبة المرتاد
ثم ولى عنا فقيدا حميدا ... فجزاه الجنان رب العباد (٣٣)

انها لوعة صادقة لجوى الحزن الدفين الذى عاشت فيه الشاعرة، وبات يفصح عن أفكارها وأحاسيسها ، بدون تصنع أو تكلف ، فقد صدرت هذه الأبيات عن استعداد الشاعرة الفطرى تجاه هذا الموقف الأليم ، فجاشت عواطفها بهذه الأبيات الحائرة التى جعلتها تجافى الفراش ولم تذق طعما للنوم .

---

(٣٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٨ ص ٦٩ القسم الثانى .

وإذا ما تأملنا النص وقرأناه بعمق وجدنا الشاعرة قد استعملت الألفاظ المناسبة بما تشتمل عليه هذه الأبيات من كلمات مؤثرة غاية فى التأثير النفسى ، وهذه الطريقة الفنية لم تقصدها الشاعرة قصدا ، وانما أملتها عليها الفكرة المسيطرة والتجربة الشعرية التى عاشتها ، كذلك هذا الموقف المؤثر فى وجدانها ، ولا ننسى الملكة الشعرية التى فرضت على الشاعرة نفسها فجعلتها توظف هذه الكلمات وتلك التعبيرات فى أداء رسالتها فى مثل هذا النص .

ونذكر على سبيل المثال بعض الكلمات المؤثرة فى النص مثل قولها « آب ليلى » وكأن الساعة التى تمر منه ترجع وتعود فهو لن ينقضى ، أو تقصد ان عهد الجاهلية سيعود ثانية بعد فقد المصطفى - ﷺ - ، وهذا تعبير له دلالته الخاصة من وجهة النظر الاسلامية فى عهدها الأول ، فقد ارتدت بعض القبائل .

ومثل قولها « جفا الجنب ، وطء الوساد » فهذا دليل على القلق النفسى الفظيع والمعركة الفكرية الدائرة فى أعماق الشاعرة والتى جعلتها لا تستطيع أن تضع جنبها على الفراش وهى تتصور الهموم الكثيرة والوهن الذى سوف يدب فى جسم الأمة عندما تفقد الحبيب - ﷺ - وتتراكم عليها الأهوال وتنزل بها الشدائد وهذا المعنى نأخذه من تعبيراتها « اعتراء الهموم ، الوهن ، شداد .. » الخ .

فهذه التعبيرات والألفاظ تجعل المتلقى يعيش فى جو ملئ بالحزن والقلق واليأس لفقد ذلك الرسول العظيم - ﷺ - والذى كان رحمة للعالمين ، وهدى من أطاعه الى السداد والرشاد والى صراط مستقيم .

وبهذه الألفاظ وبتلك التعبيرات استطاعت الشاعرة أن تصور لنا عالمها النفسى الملىء بالحزن والضيق والقلق ، متصلا بالغرض الذى

من أجله قالت هذه الأبيات ، وتوحى للقارىء أو السامع بهذا الجو الكئيب والظرف الشديد ، لأن ذهن السامع أو القارىء المسلم فى مثل هذا الرثاء تعود النفاذ والتعمق فى الصورة الحسية الواقعية ، الى دلالتها النفسية ، وارتباطها بصاحبها .

وهذا ما جعل الشاعرة تنسب لليل هنا عدم الأمان والاستقرار النفسى ، فهو يخيم عليها بسواده ، وتنزل فيه بها الهموم والآلام ، فلا يرقأ لها جفن ولم تغمض لها عين ، انه يوجعها بضرباته وغمزاته ، ويعود وقد أفعم قلبها بالحزن والهموم الكثيرة التى اصابتها بالضعف والهوان .

وهنا نحس بالصدق الفنى والواقعى ، والذى عبرت عنه الشاعرة بكل أحاسيسها ومشاعرها لتجعلنا نعيش هذا الواقع المر وفى ذلك الجو الذى تغشاه الظلمات وتغلفه الكآبة ، ويسيطر عليه الحزن ، بقدر مكانة هذا الحبيب وعلو درجة المرثى — ﷺ — عند الله تعالى — الذى اختاره الى جواره وعند الناس الذين أسدى اليهم فى حياته كل معروف ، هذه واحدة ، والثانية تلك اللوحة المعبرة ، والصورة الحية الناطقة التى احتوتها هذه الأبيات فى تجسيم شخصية المصطفى — ﷺ — وما كان له من صفات كريمة فاضلة فاق فيها جميع البشر لأن الله قد اختصه بها ، ومنها : الرحمة العامة الشاملة للبرية وكذلك شريعته الغراء التى هدى بها من اتبعه الى الرشاد والسداد ، وقاده بها الى النجاة والسلام ، وهذا النسب الذكى الشريف الطيب الذى رفعه الحبيب — ﷺ — فصار النسب به من أشرف الأنساب « كما افتخرت برسول الله عدنان » .

من هذه الصفات كذلك صدقه وأمانته ، فهو لا يقول الا صدقا

حتى قبل بعثته - ﷺ - سماه العرب « الصادق الأمين » أيضا عفته ، فلم ينظر الى محرم عليه ، وكرمه وجوده الذى ينتهى عنده كل الرواد ومن يطلب العطاء ، الى غير هذه الصفات التى احتوتها تلك اللوحة الرائعة .

وقد اتحدت هاتان الصورتان بكل أجزائها الداخلية والخارجية لتعطينا صورة كلية متكاملة ، تجسم لنا هذا الخطب الجسيم الذى حل بالأمة الاسلامية فجعل الهموم تعتريها وتلازمها ، والوهن يدب فى كيانها ووجودها ، لنزول هذا الأمر الشديد ، وهو فقد القائد العظيم ، والرؤوف الرحيم والصادق الأمين .

وكدأب الشاعرة عندما تختتم مراثيها فى رسول الله - ﷺ - تثنى عليه وتدعو له وتطلب من الله أن يجزيه خير الجزاء وهو الجنات التى فيها النعيم المقيم فقالت فى نهاية الأبيات :

ثم ولى عنا فقيدا حميدا ... فجزاه الجنان رب العباد

وهذه شاعرة أخرى ترثى رسول الله - ﷺ - وهى هند بنت الحارث بن عبد المطلب - رضى الله عنها - تقول باكية :

يا عين جودى بدمع منك وابتدرى ... كما تنزل ماء الغيث فانتعبا
أو فيض غرب على عادية طويت ... فى جدول خرق بالماء قد سربا
لقد أتتنى من الأنباء معضلة ... أن ابن آمنة المأمون قد ذهبا
أن المبارك والمأمون فى جدث ... قد الحقوه تراب الأرض والحدبا
أليس أوسطكم بيت أو أكرمكم ... خالا وعما كريما ليس مؤتشبا(٣٤)

---

(٣٤) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ القسم الثانى .

والأبيات وإن بدأت فيها الشاعرة كعماتها الراثيات ، وخاطبت العين وأمرتها أن تجود بالدموع أتت بصورة جديدة فى هذا الرثاء تغايرهن فيها ، هى أقرب للفخر بنسبها ، فالشاعرة كما هو واضح ابنة عم رسول الله — ﷺ — وقد خاطبت الناس فى البيت الأخير قائلة : « أوسطكم بيتا ، أكرمكم خالا وعما كريما » •• فهذا فخر بالنسب الذى نهى عنه الاسلام وكان الأجدر بها — كما فعلت عماتها — أن تشيد بمناقب الرسول — ﷺ — من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وما أكثر هذه المناقب والصفات فيهما •

أما باقى الأبيات فيدل على التأثير الواضح لفقد هذا الحبيب ، والحزن الشديد عليه ، وتنادى العين وتحثها على أن لا تبقى دمعة واحدة تستطيع أن تذرفها ، لأنه لا يوجد بعده من يبكى عليه ، وأتت بتمثيل من الطبيعة المشاهدة وهو : فكلما لا تبقى قطرة ماء فى الجدول المخروق الا وتسربت حتى لا تظل فيه قطرة واحدة فيجب على العين أن تكون مثله ، ولو شبهت الشاعرة جدولها بالغربال لكان أجود ، كما فعل الشاعر ، « كعب بن زهير فى قصيدته « بانت سعاد •• »(٣٥) •

ان الشاعرة عندما أتاها نبأ هذه المعضلة ، وسمعت الخبر المؤلم ، وكان بمثابة وقع السكين الحادة على عنقها أو ضربة السيف البتار على أم رأسها ، حثت عينها وأمرتها أن تجود بالدمع الغزير ، كما يسيل الغيث مدرارا •

وقد اتسم تعبيرها عن الفكرة التى أرقتها بالصدق الفنى النابع من أعماق النفس والوجدان ، وكان هذا الاحساس دافعا لها للتعبير عن هذه

---

(٣٥) راجع القصيدة فى جمهرة أشعار العرب للقرشى ص (٢٢٣) .

الحقيقة المؤلمة التى عاشتها فى داخلها ، وعاشت أبعادها فى أعماق نفسها ، فلم تتكلف الموقف ، وانما جاءت افكارها ترجمة لعواطفها ، ولكن من هول المصيبة جاء هذا التعبير الذى نحس فيه بنبرة الفخر بالنسب الذكى ، وقبله صورت الألم ، واستثارت الشفقة ، والرجاء الصريح للعين أن تجود بالدمع الغزير الذى يشبه الغيث فى تدفقه ، وكان هذا نتيجة لصدق العاطفة وقوتها ، وأيضا صدق الاحساس لطول الحرمان واستحكام الألم الذى سوف تعيش فيه من بعد الفقيد ـ ﷺ ـ ولم تذكر من الصفات الا الصفات العامة التى تميل الى التعصب القبلى (عما وخالا) ..

والصفة الخاصة التى ذكرتها للنبى ـ ﷺ ـ وهى الأمنة ، قد كررتها الشاعرة فى بيتين متتاليين والعجب أن الصفات الخاصة به كثيرة ، ومعروفة لدى الشاعرة لأنها ابنة عمه ـ ولكنها شدة المصيبة التى جعلتها تفقد التركيز ، وترتيب الأفكار التى تريد أن تفصح عنها فى مثل هذا الموقف .

ونمضى مع راثيات الرسول ـ ﷺ ـ وتقف عند هذه الشاعرة وهى : هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف أخت مسطح ابن أثاثة ، تقول :

أشاب ذؤابتى وأذل ركنى ... بكاؤك فاطم الميت الفقيدا
فأعطيت العطاء فلم تكدر ... وأخدمت الولائد والعبيدا
وكنت ملاذنا فى كل لزب ... اذا هبت شآمية برودا
وانك خير من ركب المطايا ... وأكرمهم اذا نسبوا جدودا
رسول الله فارقنا وكنا ... نرجى أن يكون لنا خلودا
افاطم فاصبرى فلقد أصابت ... رزيتك التهائم والنجودا

وأهـل البر والأبحـار طـرا فـلم تخطىء مصيبته وحيـدا
وكان الخير يصـبح فى ذراه سعيد الجد قد ولد السعودا(٣٦)

عندما نمعن النظر فى هذا المطلع للقصيدة نرى أنه يكشف لنا عن ذلك النبع الدفاق فى أعماق الشاعرة من اللوعة والحزن والأسى العميق، وهذا الكشف نراه من خلال تعبيرها بلفظ الشيب الذى ظهر عليهـا من شدة الوجد والبكاء من قبل السيدة فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — على أبيها — ﷺ — وكأنها فى هذا السياق تعبر عن احتياجها الى الألم ذاته ، وهذه الحاجة لن ترد عليها ما فقد ، وانمـا هى مسرب للتنفيس بل شعيرة الأسى ولحن الألم •

ومن خلال هذا المطلع أيضا نرى فداحـة احساس الشـاعرة فى أرتباط مصيرها المستقبلى عندما فقدت الرسـول — ﷺ — حيـث ان ركنها القوى المتين أصبح ذليلا ضعيفا ، فهذه المراثيه لا تصور لنا من الناحية التعبيرية احساس الشاعرة بالفاجعة التى تدرك الانسان عنـد الوهلة الأولى لوقوع المصيبة عليه ، بل الصياغة التعبيرية هنا تطلعنـا على مأساتها المتمكنة والتى تغلغلت فى أعماقها المتدفقة فى جنبـاتها ، والتى باشرت فى عمق فعلها فى وجدانها ومشاعرها ، وهذا ما جعلنى أهتم بابرازه لقيمته المؤثرة فى نفسية الشاعرة ، اذ يتضح لنا من هذا المطلع أنها ستبقى ضحية هذه الفاجعة المؤلمة طيلة حياتها •

وتذكر الشاعرة بعضا من مناقب الرسول — ﷺ — ثم تحاول أن تعزى السيدة فاطمة الزهراء وتحثها على الصبر فتقول لهـا : ان تلك المصيبة لم تكن خاصة بك ، أو بآل البيت فقط ، ولكنها عامـة أصابت

---

(٣٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٩٧ القسم الثانى •

جميع المسلمين من تهامة ونجد ، وأهل البر والبحر حتى من غير البشر، فتلك الفجيعة لم تخطىء مخلوقا يحب رسول الله — ﷺ — •

وهذا يرجع الى مكانة الفقيد وعظمته وجوده وسخائه ، فالخير كان يصيح فى كل مكان حل به ، وقد سارت الشاعرة بتقصى جوانب موضوعها ، وتتبع جزئياته وأبعاده ، فجاءت أبياتها مترابطة فى اتحاد وانسجام ، ولهذا لا تحس فيها بالتكلف أو الضعف ، وانما تسلسلت الافكار وتتابعت المعانى حتى انتهت الى الهدف الأصيل ، المرتبط بما فى وجدانها من خواطر وأفكار •

وفى أبيات أخرى تقول الشاعرة هند بنت آثاثة :

ألا يا عين بكى لا تملى ... فقد بكر النعى بمن هويت
وقد بكر النعى بخير شخص ... رسول الله حقا ما حييت
ولو عشنا ونحن نراك فينا ... وأمر الله يترك ما بكيت
فقد بكر النعى بذاك عمدا ... فقد عظمت مصيبة من نعيت
وقد عظمت مصيبته وجلت ... وكل الجهد بعدك قد لقيت
الى رب البرية ذاك نشكو ... فان الله يعلم ما أتيت
أفاطم انه قد هد ركنى ... وقد عظمت مصيبة من رزيت(٣٧)

وكما فعلت الشاعرة فى مطلع القصيدة الأولى لتكشف لنا عن لوعتها وحزنها ، فعلت هنا بل كانت أقوى من الأبيات الأولى ، فقد داطبت هنا عينها وحثتها على البكاء وعدم الملل منه ، لانها تحتاج الى

---

(٣٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٩٧ القسم الثانى •

هذا البكاء موصولا غير منقطع ، وكأنها تعنى فى ذلك السياق أنها محتاجة الى الألم ذاته .

وقد عبرت الشاعرة عن سبب ذلك الحزن الشديد والبكاء الطويل، وهو عندما بكر الناعي بفقد الحبيب — ﷺ — وهذا ما عمق فيها جراح نفسها واستمرار لوعتها ، انه رسول الله ، خير شخص على وجه هذه البسيطة ، وهي بالطبع رائضة لهذه الفجيعة ، ولكن أمر الذى لابد من نفاذه ، فهي هنا تشير الى مشاعر الحسرة فى نفسها وكأنها تستعطف الأقدار وتقول لها كان الأولى بك الاعراض عن هذا الحدث « ولو عشنا ونحن نراك فينا » .

والشاعرة فى هذه الأبيات تهدف الى شيء ذى قيمة هو : أنها فى حزنها الشديد تصور الطبيعة الإنسانية المسلمة التي فقدت أغلى شيء لديها ، فى أدق خلجاتها ، ومن ثم فهي ليست شاذة فى موقفها هذا ، بل انها انسانة سوية غير مسرفة فى حزنها مهما بدا قاسيا شديدا ، ومن هنا تظهر قيمة الالحاح فى تكريرها للفظ « بكر النعى » وقولها « عظمت مصيبته » فى الأبيات القليلة ، والذى ربما يبدو منكرا فى وجهة نظر بعض الناس .

والشاعرة هنا تظهر فى مرثيتها ، صدق التجربة ورقة العاطفة ، وشدة التأثر ، والانفعال ، وبهذا كشفت لنا عن عواطفها ، وطبعتها بطابع الحزن والألم ، وقد حرصت فيها على تصوير هذه الفجيعة بنفس جياشة بالحزن مليئة بالشجن ، مولهة بفقد خير الناس — ﷺ — الذى مضى عنها ، وهى مشغوفة به ، حريصة عليه ، وهى لا تجد طريقا الى السلوى عنه ، بل كل ما حولها لابد أن يشاركها هذا الاحساس .

وعندما نتأمل فى القصيدة جيدا نشعر بحرارة العاطفة ، بل

مشاعرها ، فالشاعرة نجحت الى حد بعيد فى الكشف عما يحتمل فى ذاتها من العاطفة الملتهبة بالحزن وفجيعة الفقد • انه جمال الصورة الفنى ، وصدق الأداء والشعور •

وتقول هند بنت أثاثة أيضا :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم نكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها
فاجتل لقومك واشهدهم ولا تغب

قد كنت بدرا ونورا يستضاء به
عليك تنزل من ذى العزة الكتب

وكان جبريل بالآيات يحضرنا
فغاب عنا وكل الغيب محتجب

فقد رزئت أبا سهلا خليقته
محض الضريبة والأعراق والنسب(٣٨)

والشاعرة كغيرها من الشاعرات اللاتي رثين رسول الله — ﷺ — عبرت عن شعور الأمة ، فكل ما قيل وصدر عنهن من شعر ، شاهد على ذلك ، فقد كانت الشاعرة تصدر عما يختلج فى صدر كل مسلم ، لا عن ذاتية فردية ، وهذا ملحظ له قدره فى التراث الفنى لهؤلاء الشاعرات اللاتى نطقن بلسان الأمة الاسلامية ووجدانها العام •

ان الشاعرة هنا قد اتجهت الى ايثار ما يعبر به عن الخسارة الروحية فى الفقيد ، فى بزوغ تلك المدة الزمنية الراهنة فى عصرها وبيئتها ، فقد كان — ﷺ — بدرا ونورا يستضاء به ، فى أخلاقه

وشريعته وأفعاله ففى حـــزينة وقلبهـــا جريح ، بل وحزنها نافـــذ الى الأعماق ، لفقد هذه الخصال التى لا توجد فى انسان غيره ، وتوضـــح ذلك بقولها « قد كنت بدرا ونورا ••• » •• وقولها « عليك تنزل من ذى العزة الكتب » « وكان جبريل بالآيات يحضرنا •• »•

ففى حياته ــ ﷺ ــ كانت الآيات القرآنية تنزل عليـــه من رب العالمين عن طريق جبريل ــ عليه السلام ــ وهذه الآيات كانت تنير لنا طريق الخير وتفسر لنا المبهمات من الأمور ، وتطلعنـــا على كثير من الأشياء ، التى لا علم لنا بها ، ففى فى حكم الغيب بالنسبة لنا ، وبفقده ــ ﷺ ــ انقطع الوحى ، فغاب عنا هذا الخير الكثير •

وقد انتزعت الشاعرة صورة حية فى هذا المعنى من واقع البيئة الصحراوية فى قولها « انا فقدناك فقد الأرض وابلها •• » فالأرض اذا فقدت المطر والغيث تصبح جرداء لا نبات فيها ولا حياة ، وكذلك فقده ــ ﷺ ــ بالنسبة للمسلمين ، فكانت موفقة فى هذا التصوير والتمثيل لترسخ فكرتها فى الأذهان ، وتبرهن على شدة حزنهـــا ولوعتهـــا ، وعاطفتها الصادقة التى صاغت بها هذه الأبيات وعبرت عن تجربتهـــا الشعرية فى صدق فنى وواقعى ، لتجعلنا نشاركها فى هذا الشـــعور وتلك العاطفة الحزينة ، والنفس الجريحة التى سلبت أعز ما تمتلك فى هـــذه الحيـــاة •

وبعد هذه الصور التى رأيناها تقطع نياط القلوب حزنا على فراق الحبيب ــ ﷺ ــ لا نغالى اذا ما قلنا : ان هذا الرثاء نبع من احساس ارتباط الفرد بالجماعة ارتباطا تاما ، ومن شعور بالفراغ الكبير الذى تركه خلفه الفقيد ــ ﷺ ــ •

وهذا الشعور يوحى بالرغبة فى أن يملأ ، ولكن كيف ؟ ومن يكون

فاذا رأينا ضرب الوجه بالكف من قبل بعض زوجاته ونساء المؤمنين فهذا من اثر تلك الصدمة ، وعلى شدة الخوف من أثر فقده على كيان الأمة الاسلامية عامة ، وعلى أهل بيته خاصة ، أى أثره على الجماعة من حيث هى بناء مترابط ، وليس لطما عليه — ﷺ — والا فقد نهى عنه قبل أن يفارق الدنيا ، وهذا ما جعل رثاءه — ﷺ — له ميزة خاصة تختلف عن رثاء غيره من البشر مهما كانت منزلته .

فجاء هذا الرثاء — كما رأينا — بعاطفة عامة شاملة ، لا بعاطفة خاصة فى دائرة ضيقة محدودة ، كالأسرة والأصدقاء فحسب ، ومن ثم فقد صار عرفا وتقليدا جماعيا واجتماعيا فى آن واحد لدى هؤلاء الشاعرات ، لأن فضائل النبى ومناقبه لم تخص أحدا بعينه ، ولكنها كانت جماعية شاملة لخدمة أفراد المجتمع وتربيتهم على الفضيلة والرحمة ، واغاثة كل ملهوف ومحتاج ، وكان هذا سببا قويا فى دوران الشاعرات فى هذا الفلك ، وذكر ما تيسر لكل شاعرة من فضائله الجمة وتصب أفكارها من خلال الرثاء الجماعى الذى نبع من عاطفة صادقة لدى الشاعرة وغيرها من أفراد المجتمع الذين يادلوها هذا الاحساس وتلك العاطفة ، فهى مشتركة بين الشاعرة والمتلقين .

وقد أخذت كل شاعرة تسرد بعض فضائل الرسول — ﷺ — فهو الفاضل ، والسيد المصطفى ... وتتذكر صورة الحياة من بعده ، وكيف تعيش بعد فقده — ﷺ — فبموته قد ماتت الحياة ، واقتربت الساعة ، وبهذا تقدم كل شاعرة حجة قوية تكشف لنا بها عن طبيعة تعلق المسلم وحبه القوى لرسوله — ﷺ — اذ توضح أنه يشغل من عواطفهم مكانا لا ينازعه فيه أحد من الناس ، وحتى الانسان نفسه يحبه أكثر من نفسه التى بين جنبيه ، وبفقده سيفقدون الحياة ، واذا استمرت فهى منغصة شائبة ، وسوف يلازمهم الألم فى كل وقت وحين

وتيام الساعة وانتهاء الحياة خير من العيش فيها بغير رسول الله — ﷺ — .

وبعد : فقد كان بكاء النبى — ﷺ — من قبل شاعرات بيت النبوة — رضوان الله عليهن — يعتمد على الانفعال بالتجربة الانسانية ، وتصوير ألم الاحساس بالفجيعة التى مضى بها كل مسلم على ظهر هذه البسيطة ، وليس أقرباؤه فقط ، لأنه كما وصفه ربه تعالى « بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

ومناقبه وفضائله — ﷺ — أكثر من أن تحصى ، ومن أراد المزيد فعليه بكتب السيرة النبوية والأحاديث الشريفة ،وقبل هذا يقرأ القرآن الكريم ليروى ظمأه ويشفى غليله ..

سلام عليك يا حبيبى يا رسول الله فى الأولين والآخرين

وعلى آل بيتك الطيبين الطاهرين ..

« المصادر والمراجع »

أولا : القرآن الكريم •

ثانيـــا :

١ ــ أدب النساء فى العصر الجاهلى د• محمد بدر معبدى •

٢ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة تأليف : عز الدين بن الأثير • تحقيق : محمد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ط الشعب سـنة ١٩٧٠م القـاهرة •

٣ ــ أضواء على الأدب الحديث • د محمد أحمد الحوفى • ط دار المعارف القـاهرة •

٤ ــ تاريخ الطبرى • تاريخ الرسل والملوك ــ لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى • تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم • ط دار المعارف سنة ١٩٧٩م •

٥ ــ تفسير ابن كثير • للامام الحافظ • أبى الفدا اسماعيل بن كثير القرشى • ط دار المنار للطبع •

٦ ــ جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام • لأبى زيد محمد القرشي • تحقيق على محمد البجاوى • ط دار نهضة مصر • الفجالة سنـة ١٩٨١م •

٧ ــ خلفاء الرسول ــ ﷺ ــ للأستاذ • خالد محمد خالد ط دار ثـابت للنشـــر والتوزيع سنة ١٩٨٥م •

٨ ــ دراسات فى الأدب العربى والتاريخ • بقلم محمد عبد الغنى حسن • ط الدار القومية •

٩ ـ السيرة النبوية لأبى عبد الملك بن هشام • راجع أصولها وعلق على حواشيها : نخبة من العلماء • ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة بدون تاريخ •

١٠ ـ الشعر فى عصر المأمون دراسة وتحليل • د على محمد على طلب ط • الأمانة بالقاهرة سنة ١٩٨٥م •

١١ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ محمد بن سعد كاتب الواقدى ط دار الفكر العربى •

١٢ ـ فنون الأدب العربى ـ الفن الغنائى ـ الرثاء ـ د شوقى ضيف • ط دار المعارف •

١٣ ـ لسان العرب • جمال الدين بن منظور • ط دار المعارف القاهرة

١٤ ـ مختار الصحاح • عبد القادر الرازى • تحقيق محمود خاطر ط النهضة المصرية بدون •

١٥ ـ المرأة فى الشعر الجاهلى • د محمد أحمد الحوفى • ط نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٨٠م •

١٦ ـ النقد المنهجى عند العرب د محمد مندور • ط دار نهضة مصر للطبع والنشر بدون •

وبالله التوفيق